

### شوقي وعصماؤه والإسلام وخلفاؤه

بقلم أمير من أمراء الصناعتين في البيان العربي

شوقي شاعر، شاعر النيل وشاعر البسفور، شاعر الحضرة الخديوية في مصر وشاعر العرش العثماني في فروق، شاعر العهد الحميدي في حكومته المطلقة وشاعر العهد الرشادي في حكومته الدستورية. كذلك شوقي نفسه شاعر الخلافة الإسلامية متمثلة في التاج العثماني، وشاعر الجمهورية التركية متشخصة في قبعة مصطفى كمال.

ثم من هنا وهناك شوقي عينه شاعر الشرق فأمرير الشعر، أو أمير الشعراء!

لا بأس. طائر يغرد في كل فنن، وريشة تضرب على كل وتر، وإن شئت فقل: شاعر في كل واد يهيم!

لا بأس. إن في شعر لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن الرجل لمطبوع على الشعر كأنما خلق ليكون شاعراً، فليكن أمير الشعر والشعراء، وليكن شاعر الشرق والغرب إذا شاء.

في استطاعة شوقي أن يكون كل ذلك، وفي استطاعة شوقي أن يهيم في كل واد، وأن يقدح كل زناد. ولكن ليس في استطاعته أن يتمرد على الطبيعة يخرج عن الدائرة التي وضعه الله ضمن حدودها دون أن يضل سواء السبيل، فلا يلبث أن يعود مقهوراً مدحوراً لم تغن عنه شيئاً ألقابه ووديانه، ولا أوتاره وأفنانه، فإنها شيء، وما تصدى له شيء آخر.

في استطاعة شوقي أن يمرض الخلافة حين كان لها عرض، وأن يبكيها يوم كان لها وارث، وفي استطاعة شوقي أن يمدح الخلفاء وأن يأخذ الجوائز، ولكن ليس في استطاعته أن يحكم على الخلافة الإسلامية بعد موتها ذلك الحكم القاسي، ويتخذ الأحكام الشرعية ألعوبة لمقدماته الشعرية، فإن الشرع غير الشعر وإن تجانست حروفهما. وجدير بمثله أن لا تغرّه دولة الأدب وينخدع بمثل هاتيك الجناسات.

كذلك ليس في استطاعة شوقي أن يتخذ من براعه معولاً يقوض به صرح مجد للإسلام عظيم، يأتيه من قواعده قبل نيف وثلاثة عشر قرناً على عهد الخلفاء الراشدين، إذ جلال النبوة مائل بعد أمام الأعين، وصدى صوت الوحي يرن في الأذان.

مرض الخلافة، غناها وبكاها. مدح الخلفاء، أخذ الجوائز. طوراً شاعر الحضرة الخديوية والعرض العثماني، وتارة شاعر الحفلة التكريمية لأمين الريحاني. أراد كل هذا شوقي وفعل، فما تعرضنا له في شيء مما فعل وأراد.

أما وقد خرج عن حدود الشعر إلى حظيرة الشرع، بيده خنجر مسموم، يغمسه في قلب الأمة وتقاليدها، ويمزق به أشرف صحيفة من تاريخ مجدها، لا يبالي بخرق إجماع علمائها وتدنيس ثياب خلفائها، والحط من كرامة عظمائها، ذلك ما لا يمكننا الصبر معه ولا العذر فيه، وما هو باللغو الذي يمر به مرّ الكرام، فإنه لم يكن في جانب الله من لا يغضب الله.

ولا يذهبن الوهم إلى أنني من القائلين بنصف إمام للمسلمين في مثل موقفهم هذا في يومهم هذا، ولكني من المعتقدين بوجوب الإمامة في الإسلام، والفرق بين الأمرين واضح. وسنوفي هذا الموضوع حقه إن شاء الله بعد فراغنا من تحليل العصماء، إذ نعقد فصلاص خاصاً بالمسئلة من الوجهة الشرعية وآخر فيما يخص تطورات الروح الشعرية، ثم فيما يجب على الأمة من التبصر في الأمور واقتناء اللباب دون القشور، لا يغرّها مجاز دون قنطرتة عبر الحقيقة، ولا يخذعها اصطلاح يفوق سهام الألفاظ ولا يصيب كبد الأغراض.

هذا، ولنعد لما كنا فيه:

إن الأجدر بعصماء شوقي أن لا تكون من وحي ضميره، فقد حوت من التناقض ما نمّ علي اضطراب الفكر، ورداءة الطبع، وسوء التصرف مما جعل العصماء عجفاء يمجها الذوق وبعلم بعضها بعضاً.

لا سيما إذا قيست بسائر عصماواته في ديوانه، فإنك تحكم نهائياً بأنها إمام كانت من نسج بناته فليست من وحي ضميره ووجدانه، وإما هي دعي لا يمكن إلحاقه بذلك النسب، وفي الأخير نقول: لأبيها الحجر. وسنوافيك بشيء من هذا.

ولعل السبب الأكبر في ذلك تمرده على الطبيعة وخروجه عن حدوده من كونه شاعراً إلى كونه شارعاً. ومما ألحق بكلمات النبوة قول الخليفة الرابع عليه السلام: رحم الله امرءاً عرف قدره ولم يتعدّ طوره.

أنا لا أنكر أن شوقي شاعر عظيم، ولا أنتقدته كما أنتقدته عارفوه من نوابغ بلده الطيب فوصمه بعضهم «بالزهو، والسهو، والحشو» ووصفه آخرون بأوصاف أجله عن

اليوم لا سمر الرماح بعده

تعني ولا بيض الطبا بعتاد

اضطراباً لا يستقيم معه معنى – وذلك: أنه أراد أن يرشد  
مبتغي الخلافة إلى المحل الذي يجدها فيها، فدلّه على محلين  
لها، وقال إنك تجدها بين القواضب والقنا، أو في جناحي  
عقري مراد (أي بين السيوف والرماح، أو في سلاح  
الطيران كما فسرهما هو في الحاشية)، ثم عاد فنفض في  
البيت الثالث ما أبرم في الأول فقال:

اليوم لا سمر الرماح بعده

تعني ولا بيض الطبا بعتاد

إذ جعل سمر الرماح وبيض الطبا لا تعني مبتغي  
الخلافة شيئاً ومعنى هذا أن ليس للخلافة بين القواضب  
والقنا محل، فنفى ثانياً ما أثبت أولاً: وهل هذا إلا التناقض  
نفسه؟ وهل مناقضة الشاعر نفسه إلا نتيجة اضطراب  
الفكر، ورداءة الطبع، وسوء التصرف؟

فإن قال أمير الشعر: إنما أردت بالقواضب والقنا في  
البيت الأول آلات القتال مطلقاً مجازاً مرسلأ من قبيل  
إطلاق الخاص وإرادة العام، وأردتُ بمراد فاتها في البيت  
الثاني معناها الحقيقي فلا تناقض. قلنا له ما قال كسرى  
لأحد خطباء وفد النعمان: «إن منطقتك لا يقوم بمؤدك».  
فإن من القواعد المعروفة «أن بيان المراد لا يدفع الإيراد»  
وإن كانت طريقة الشعر أن يلم الشاعر بالمعنى إماماً، على  
أن العطف بـ«أو» سواء كانت للتتويج أو للتخيير، أو بمعنى  
الواو على حد قول جرير: «كانوا ثمانين أو زادوا ثمانية»  
لا يساعد على ذلك. وإن مثله مما يخل ببديهة النظم ومزية  
التناسق فيه، وهذا ما لا نريد أن نعرف مثله عن أمير  
الشعراء. على أن تفسيره في الحاشية نص منه على أن  
مراده بالقواضب والقنا معناها الحقيقي حيث فسرهما  
بالمرادف معيّن مراده المجازي من المعطوف عليهما في  
البيت الثاني كما مر.

رابعاً – إن قوله بعد ذلك:

حلت على ذهب المعزّ طلاس

ومشت على سيف المعزّ عوادي

أين الكرامة والوقار لجثة

نبشوا عليها القبر بعد فساد

ثم قوله:

غلبوا عليها الراشدين وضرجوا

أم الكتاب بجبهة السجّاد

وبنوا على الدنيا جلق ركنها

وعلى عتو الملك في بغداد

عبارة عن سرد وقائع تاريخية في معرض الاستدلال  
على فساد مبدأ التمسك بالخلافة والانتصار لبقائها ماثلة في  
لوح الوجود.

فنقول: إن هذا الاستدلال يصادم قوله في الخلافة بعد  
ذلك:

ذكرها حتى جعلوه غير شيء، أو شيء أحسن من لاشيء.  
ولكنني أريد أن أحلل عصماء تحليلاً يبرهن على أنها ليست  
من وحي ضميره إما كان شاعراً عظيماً، ومن هنا يكون  
ترياقاً للسم الذي نفثه يراعه – شاعراً أو غير شاعر. وما  
كانت تلك النفثات لدين الإسلام الحنيف وتاريخ المسلمين  
المجيد بأشد ضرراً منها للناث نفسه. وإنه ليهمني والله أن  
تبقى صحيفة شوقي – وأنا المفتون ببديهة نظمته – نقية  
بيضاء وإني لأذكر – الشيء بالشيء يذكر – أن أحد  
رجالات العلم والأدب سألتني يوماً – ونحن في القدس  
الشريف – عن شوقي وآخر من منازعي عقريته في قرص  
الشعر، فكان جوابي: أنا لا أستطيع أن أقدم شاعراً على من  
يقول في ملة الإسلام:

الدين يسر ، والخلافة بيعة

والأمر شورى، والحقوق قضاء

ثم أفضتُ في شرح هذا البيت وبيان مزياه من  
الوجهتين الشرعية والأدبية بما مثله البيت المعمور ومثل  
صاحبه ملكاً كريماً، وحمل مخاطبي على مقابلي بكلمات  
حسبي منها انصباغه لمشاركتي في الرأي. وما كان ليمر  
بخاطري أن يضطرنني الواجب إلى مناقشة من ناقشت عنه  
والموضوع واحد... فليسمح أمير الشعر لناقشه الحساب،  
ففقول:

أولاً – إن عصماء أنت متأخرة عن أوانها، وإن وضع  
الشيء في غير موضعه ليس من المنطق في شيء. أليس  
من رأيه في الخلافة كما يفهم من عصمائه أن لا يُبعث هذا  
الميت من مرقده؟ فعمد إلى إقامة البرهان وسرد الأدلة –  
والمقدمات الشعرية – فيها على حسن هذا الرأي ليحمل  
الوفود من المؤتمرين على قبوله، بدليل قوله في خطابهم:  
أتحاولون بلا جهاد خطة

لم يستطعها الترك بعد جهاد

فكان إذن يجب نشر عصمائه والمسئلة على بساط  
البحث بين المؤتمرين. أما وقد بتّ القوم في المسئلة وفرغوا  
من البحث فإن تأخير المقدمات عن النتائج مما تأباه قواعد  
المنطق، بل تقضي بعكسه.

ثانياً – إذا كان هذا مبدأه فما الذي عاقه أن يصدع به  
والمؤتمر منعقد، كما هو شأن أصحاب المبادئ يستفزون  
الأفكار ويستميلون النفوس إلى اعتناقها عند كل فرصة  
سانحة؟ وماذا عسى أن تكون قيمة عصمائه لو أن الله قد  
قدر وكان قرار المؤتمر مناقضاً لمبدأه من كل الوجوه  
وعلى عكس هواه؟ وقد فهمت يوم وافيت القاهرة لحضور  
المؤتمر أنه يعد قصيدة للمؤتمر عصماء، فإذا هي هذه، وإذا  
بها تستهوي النفوس إلى ضلالة صلحاء!

ثالثاً – إن في قوله:

ومن ابتغاها صاحباً فمحلها

بين القواضب والقنا المياد

أو في جناحي عقري مراد

يفري السماء بجنة مراد

ونصرتها نصر المجاهد في ذرا

عبد الحميد وفي جناح رشاد

مصادمة لا يبررها منطق ولا يرتاح إليها ضمير، لأن هذه الوقائع التي استدلت بها على فساد مبدأ التمسك بالخلافة لم تحدث من بعد، بل كانت ماثلة أمام عينيه بين ثنايا التاريخ يوم كان حضرته متمسكاً بالمبدأ نفسه فكان من أكبر أعوان الخلافة ينصرها نصر المجاهد في ذرا عبد الحميد وفي جناح رشاد...

وهنا يجدر بنا أن نذكر الشاعر العظيم بالقاعدة المشهورة: من سعى في نقض ما قد تم من جهته فسعيه مردود عليه. اللهم إلا أن يقول: إن من أنصار الخلافة بشرط أن تكون تركية، وإلا فهو من أعدائها لأنني تركي الهوى كما قال عن نفسه بعد:

حتى أتهمتُ فقيلُ تركيُّ الهوى

صدقوا، هوى الأبطال ملء فؤادي

فنقول له حينئذ: لكن - ويا للأسف - لم يعهد في قواعد المنطق أن الملازمة بين الدليل والمدلول، من حيث هي ملازمة، تكون تابعة للأهواء.

أما سبب هذا الهوى فلا نجادله فيه فقد سبق أحد إخوانه الشعراء أن قال:

تعشفتُها شمطاءً شاباً وليدها

وللناس فيما يعشقون مذاهبُ

ولكننا لا نجد بدأً من أن نقول لهذا الشاعر الكبير: إن الحب لا يجب أن يكون أعمى، وإن مدح قوم من طريق القدر بأخرين طريقة في الشعر شواء أباهما الطبع السليم في الغابر، وهو أحرى أن يابأها في الحاضر، وإن خلفاء العرب الذين أراد الحط من كرامتهم مثلوا للخلافة ثلاثة أدوار في أربعة أقطار: دور التأسيس والفتح والدعوة والإرشاد في الحجاز، دور التبسط في الفتح والتمهيد والتشييد في سورية، دور العلم والفن والحضارة وال عمران في العراق والأندلس. فأوجدوا مملكة إسلامية عربية تحقق أعلامها على أكثر من نصف المعمورة من نهر «لوار» في بلاد «فرنسا» غرباً إلى حدود «الصين» شرقاً، لا حكم إلا لله، ولا سلطان إلا لترجمان وحيه العرب. وشادوا على أنقاض ثلاث مدنيات منقرضة دعائم مدنية باهرة وحضارة زاهرة، لا فارسية ولا رومانية ولا يونانية، ولكنها عربية إسلامية. وها هي كتب التاريخ في الشرق والغرب طافحة بمآثر هاتيك المدنية العربية لا ينكرها إلا جاهل أو مكابر. وها هي آثار مدنية العرب من عهد خلفائهم في القارات الثلاث آسيا وإفريقيا وأوربا يكاد يبصرها حتى العميان. ولقد كان الشاعر نفسه في مقدمة المبصرين، إذ تجلّت له عظمة بعض هاتيك الآثار، فاختلفت لُبّه، واستقرت مشاعره، وأنطقه الله الذي أنطق كل شيء فما ملك نفسه أن قال:

أين مروان في المشارق عرشُ

أموي وفي المغرب كرسي

سقتُ شمسُهم فرداً عليها

نورها كل ثاقب الرأي نطس

ثم غابت وكل شمس سوى ها

تيك تبلى وتنطوي تحت رسم

وعظ البحري إيوان كسرى

وشفتني القصور من عبد شمس

وأمثال هذا في عصمواته غير قليل.

إذا علم هذا كله فنقول: هل في استطاعة الشاعر العظيم المستند في عصمائه إلى التاريخ أن يبينا مدنية تركية قامت على أنقاض تلك المدنية العربية بعد ما تقوّض بنيانها وأفل نجمها المنير؟ فإما يعجزن حضرته عن ذلك فليس التاريخ يعجز عن إقامة الحجج والبيانات على حلول الجهل والجمود محل تلك المدنية الزاهرة، كذلك العيان على ذلك شاهد عدل. بل للباحث المدقق والمؤرخ المنصف أن يتوصل من هنا إلى نتيجة أخرى وهي أن الخلافة الإسلامية إنما كانت الداء الدخيل - كما سماها الشاعر في عصمائه - بعدما تمثلت في التاج التركي واللغة التركية، فإن ظل التمدن والحضارة والعلم والفن إنما أخذ يتقلص عن العالم الإسلامي وبدأ الجمود يستولي على عروق المسلمين من ذلك الحين، على عكس ما كانوا عليه في عهد الخلافة العربية ولغة القرآن. وأما الاضطراب السياسي من بعد المعتمد في العهد العباسي حتى آل الأمر إلى تلاشي نفوذ الخلافة العباسية وخروجها من يد العرب فإنما كان سببه الترك كذلك، بشهادة المؤرخ التركي «جودت باشا» المعداد في طليعة المؤرخين الأتراك. ولو كان خلفاء العرب جبارين وكانت خلافتهم دولة استعباد كخلفاء الترك ودولة خلافتهم على رأي الشاعر في قوله في الكماليين:

نزعوا من الأعناق نير جبار \* جعلوا الخلافة دولة استعباد  
لطبعوا من سلاسل جبروتهم واستبعدهم ما غلوا به أيدي  
أغيلمه الترك - كما سماهم المؤرخ التركي - عن التطاول  
على مقام الخلافة وجعل الخلفاء العوبة الأهواء يبايعون من  
شاعوا، ويخلعون من يشاءون، ويقتلون هذا ويسملون عيون  
ذاك.

وأما اقتتال العرب على الخلافة فما كان من خصائصهم ولا من خصائصها، فهؤلاء بنو عثمان أكل بعضهم بعضاً حتى قتل الولد أباه والأخ أخاه، وقد كان محمود الثاني الوارث الوحيد بالرغم من القانون الذي سنّه سليمان تخلصاً من هاتيك الفضائح، وما كان بنو عثمان إلا أتراكاً، وتلك الانقلابات الأوروبية اتقدت فيها نيران الفتن وسفكت الدماء وأزهقت النفوس في سبيل الملك أو الجمهورية، والاستبداد أو المشروطية، ولم تكن ثمة قضية خلافة أو خليفة. فليخفف أمير الشعراء، أو شاعر الأمراء، من غلوائه ولا يتماد كثيراً في أهوائه، فإن الشعر غير الشرع والتاريخ.

بقي علينا أن نسأل حضرة الشاعر: هل تذكر حين قال في خلفاء العرب من أمية وهاشم:

بنوا على الدنيا بجلق ركنها

وعلى عتو الملك في بغداد

ما سبق له من القول فيهم حين كان هائماً في واد غير هذا؟ أم لا يهيمه حين يأخذ يراعه بيده إلا الصنعة من زخرف اللفظ وديباجة النظم وإحكام القافية، وإلا الحاجة في نفس يعقوب، ثم ما عليه بعد هذا أيغضب الحق أم يرضى، ويخفق قلب الحقيقة أم يطمئن، ولا أن يكون ديوان شعره – والشعر مقتطع من سلسلة تناقضات يلعب بعض حلقاتها بعضاً؟ أم لا يبالي بالتناقض في عصماء واحدة، فأحرى أن لا يفكر به في عصماوات مختلفة؟ ولكن القارئ يذكر ويتفكر إما كان الشاعر غافلاً أو متعافلاً.

يا أمير الشعراء هذا ديوانك «الشوقيات» بين أيدينا فهل تنكر ما حوى بين دفتيه؟ يا شوقي، يا قائلاً في هاشم وأميه: وبنوا على الدنيا بجلق ركنها

وعلى عتو الملك في بغداد

ألست أنت نفسك القائل:

بالأمس إفريقيا تولت وانقضى

ملك على جيد الخضم جسام

نظم الهلال بها ممالك أربعا

أمسين لسي لعقدن نظام

من فتح هاشم أو أميه لم يضع

أساسها تتر ولا أعجام

والقائل:

هذي البقية لو حر ضم دولة

صال الرشيد بها وطال هشام

قسم الأئمة والخلائف قبلكم

في الأرض لم تعدل به الأقسام

سرت النبوة في ظهور فضائه

ومشى عليه الوحي والإلهام

وتدفق النهران فيه وأزهرت

بغداد تحت ظلاله والشام

أثرت سواحله وطابت أرضه

فالدريج والنصار رغام

والقائل:

دار الشرائع روما كلما ذكرت

دار السلام لها ألفت يد السلم

ما ضارها بياناص عند ملتأم

ولا حكيتها قضاء عند مختصم

ولا احتوت في طراز من قياصرها

على رشيد ومأمون ومعتصم

من الذين إذا سارت كتائبهم

تصرفوا بحدود الأرض والتخم

ويجلسون إلى علم ومعرفة

فلا يدانون في عقل ولا فهم

يطأطي العلماء الهام إن نبسوا

من هيبية العلم لا من هيبية الحكم

ويمطرون فما بالأرض من محل

ولا بمن مات فوق الأرض من عدم

خلائف الله جلوا عن موازنة

فلا نقيس أملاك الورى بهم

والقائل:

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا

مشت على الرسم أحداث وأزمان

إلى أن نقول:

مررت بالمسجد المحزون أسأله

هل في المصلى أو المحراب مروان

فيا رعاك الله! كيف تؤلف بين عصمانك هذه، وهذه العصماوات؟ وأمثالهم في شوقياتك كثير. أجل. قد يناقض المرء نفسه في وقتين، ولكن لا في القضايا التاريخية لأن مستند الحكم فيهن أمر واقع، وما كان هذا شأنه فلا يحتمل ذلك التناقض، اللهم إلا من طريق اتباع الهوى. ولكن المواضيع التاريخية أجل من أن تكون ألعوبة الأهواء.

يا رعاك الله! من تعلم أنه قد بنى على الدنيا ركن الدين ما بالك لا تلتسمه إلا في المصلى والمحراب؟ ومن أقاموه على عتو الملك كيف تسميهم خلائف الله، ثم نجلهم عن كل موازنة ولا ترضى أن تقيس بهم من أملاك الورى أحداً؟

يا رعاك الله! إن داراً ألفت لها يد السلم دار الشرائع، ما ضارعتها بياناً ولا حاكتها قضاءً، تنعّتها بهذا ثم تسميها دار السلام، كيف أجزت لنفسك أن تسميها بدار العتو؟ ومن تعلمهم يجلسون إلى علم ومعرفة فلا يدانون في عقل ولا فهم وإذا ما نبسوا طأطأ لهم العلماء من هيبية العلم لا من هيبية الحكم ثم تسميهم خلائف الله – لا تبخل عليهم بتشريف هذه الإضافة – كيف أبحت لنفسك فجعلتهم بناء عتو؟ وخلافة الله أجل من أن تكون عتواً، ومقام الألوهية أقدس من أن يستخلف عاتياً. ما أريد بهذا أن أنزه ساحة من دعوتهم خلائف الله، ولكني أريد أن أقول: لا هذا المدح، ولا ذاك القدح. ولقد كنت في غنى عن الجمع بينهما. كما أنني سائلك فمشدد عليك وأنت القائل:

من فتح هاشم أو أميه لم يضع \* أساسها تتر ولا أعجام

هل من المروءة والإنصاف أن تجرح عاطفة المؤسس

في هوى من ورث البناء ثم عجز عن حفظ الأساس؟

هذا. ولا يسبقن الوهم من مناقشتي هذه ودفاعي عن خلائف الله – كما نعتهم شاعرنا الكبير – من أميه وهاشم، إلى أنني لا أضمر حقداً للآتراك معاذ الله، أو أريد مساساً بكرامة أي تركي كان، فإنهم إخواننا في الدين وبينهم وبيننا – معاصر العرب – من الروابط والوشائج ما يسمى لحمة وسداها، ومن الحقوق والواجبات ما سجلته في الغابر ولن تستغني عن تسجيله في القابل صحائف التاريخ كصك وثيق. ولكني رأيت حقوقاً هُضمت وحقوقاً ظلمت وحدوداً شرعية تخطتها أقلام شعرية، فعمدت إلى كشف الأستار عن الأسرار انتصاراً للدين والتاريخ.

خامساً – ماذا يريد أمير الشعر بقوله في الخلافة:

عَنَيْتِهَا لِحْنًا تَغْلَغَلُ فِي الْبِكَاءِ \* يَارَبَّ بَاكٍ فِي ظَوَاهِرِ شَادِي  
بعد قوله:

وأنا الذي مرَّضْتُهَا فِي دَائِهِ

وجمعتُ فِيهِ عَوَاطِفَ الْعَوَادِ

فإن كان مراده أنه كان ينوه بشأن الخلافة حين كان يمرضها فيبكي - أو يتباكى - حرصاً على حياتها في الظاهر، وهو في الباطن على خلاف ذلك، وإنما مبدأه فيها يومئذ عين مبدأه في يومه هذا في عصمائه هذه فذلك ما لا نظن أمير الشعر يعترف به وإن كان قد لزمه اختلاف المبدأ - بل المبادئ - من عصمائه لزوم الظل للشاخص كما ستمر بك ألوان شتى من أسلاك تلك الصور الشعرية.

وإن كان مراده أنه من فرط حرصه عليها وتمسكه بحبل ولائها كان يستفز العواطف للعناية بأمرها من طريقين: طريق الإطراء والتنويه بشأنها وذلك ما سماه لحنًا، وطريق التألم لها والتفجع عليها وذلك ما سماه بكاء، فنقول له: إن التي غالبت في حياها هذا الغلو، وأجهدت نفسك في تريضها والاشفاق عليها هذا الاجتهاد ما بالك بعد موتها وقفت منها موقف الشامت تريد أن لا ترزق بعثًا بعد الموت ولا نشورًا، ثم تجاهر بذلك على مآل الأَشْهَادِ؟

سادساً - ليسمح لنا أمير الشعراء أن نسأله: أي إنشاده أراد في قوله:

ودفنتُها ودفنتُ خَيْرَ قِصَائِدِي

معها وطال بقبرها إنشادي

فإن له في الخلافة ضربين من الإنشاد. أحدهما التنويه بشأنها حرصاً على حياتها وذلك يوم كان يمرضها في دائها. وثانيهما الحط من شأنها شماتة منه بموتها وحرصاً على أن لا تُبْعَثَ من لحدّها بعد الموت. فإن كان إنشاده بقبرها من الضرب الأول فلماذا ينوه بشأنها ويحرص على حياتها في بطن قبرها، وعلى ظهره يكون على عكس ذلك؟ ثم ماذا عسى أن يكون الغرض من ذلك التنويه؟ وأي معنى لذلك الحرص؟ وإن كان من الضرب الثاني فما الذي يبيغيه من ذلك الإنشاد وما كان لشاعر أن يُسْمِعَ من في القبور؟ وما حيلته منها وما عذره لدى ضميره ولديها حين يبدي لها فرط حرصه على أن لا تُبْعَثَ من مرقدّها ولا تحيا بعد الموت، وهو الذي كان في حياتها يمرضها في دائها، ويغنيها، ويبكيها، ويجمع لها عواطف العواد، حرصاً منه على حياتها وفرط عناية وإشفاق وحب وولاء؟ وهل هذا من دواعي الوفاء؟

ثم ما كان أغنى أمير الشعراء - وهو الذي قد دفن الخلافة ودفن معها خير قصائده - عن جميع المتناقضات من عصمائه في قبر هذه البائسة وتعذيب روحها الطاهرة بين النفي والإثبات.

ولنا سؤال آخر إذا سمح أمير الشعراء - وذلك أن كلمة «خير يراد بها معنى التفضيل كما يقال: الاستقامة خير من الكرامة، وخير خصال الرجل أن يكون مستقيماً» وقد يراد بها ما تهش له النفوس وتطمئن إليه القلوب ضد الشر، وهو

عام يتناول كثيراً من الصور والأحوال ومنها المال كما في الآية الكريمة: «إن ترك خيراً» أي مالاً. وهي في الميت وميراثه. فأَي المعنيين أراد حضرته بكلمة «خير» في قوله: «ودفنت المعنيين قصائدي معها»؟ فإن كان الثاني - وذلك ما لا نريد أن نريده - قلنا: إذن كان البكاء على الهريسة لا على الحسين وإن كان الأول لزمه الاعتراف بأن أفضل وقصائده ما حوت التنويه بشأن الخلافة، والمدح والإطراء للخلفاء. فنقول له حينئذ: فمالك إذن قد عدلت عن الأفضل إلى المفضول وجنتنا بهذه العصماء؟ أم لم تكن من وحي ضميرك، وإنما كان يراعى فيها ريشة بمهب الريح، فتلاعبت به أيدي الأهواء؟

## للبحث صلة

### الإسلام في الأنضول الحرية المضطهدة

المفهوم مما كتب إلى جريدة (أقسام) التركية من أنقرة أن مصطفى كمال باشا، وعصمت باشا، انتهزا فرصة قضية المؤامرة الأخيرة وعوداً على أن يتذرعاً بها للخلاص من كل من يأنسون فيه إيماناً متيناً بالإسلام في ولايات الأنضول. وقد وضعت حكومة أنقرة تعليمات دقيقة في هذا الباب أبلغتها إلى جميع ولايات الأنضول تطلب فيها إليهم أن يشددوا في المراقبة على أهل التقوى وذوي العلم الراسخ في الإسلام، وأن يقبضوا على كل من يكون مسموع الكلمة محترماً من الشعب إذا كان معروفاً بصحة الدين والتمسك بالهداية المحمدية. وقد أطلق عصمت باشا في تعليماته إلى الولاية عنوان «تطهير الأنضول» على هذه العملية التي تنكرها الحرية الفكرية والحرية الشخصية كل الإنكار. وبالفعل، امتلأت سجون الأنضول الآن بجميع العلماء الذين لا ينتظر الكماليون أن يبتاوا ضمائرهم وتقواهم بحطام الدنيا. «و الله الأمر من قبل ومن بعد».

### الأمن في الحجاز

علمت جريدة «الاتحاد» من محادثة جمهور من الحجاج المصريين الذين وصلوا أخيراً إلى القاهرة عاندين من الحجاز بطريق المدينة وينبع والطور أن الأمن في الحجاز كله - وعلى الخصوص في طريق المدينة وينبع - على أحسن ما يكون في أحسن البلدان الراقية، بحسن يقظة حكومته الحالية.

وقد أذاعت حكومة الحجاز بمناسبة حادثة المحمل الشريف المصري المعروف، البلاغ الرسمي الآتي، وهذا هو بالحرف الواحد:

«كثير اللغط حول حادثة المحمل المصري بمنى، فقطعاً لألسنة المرجفين تعلن الحكومة العربية الحجازية أن

الحادثة المذكورة تعتبرها من الحوادث المحلية التي تحدث في كل بلدة من البلدان، وأن ما بين حكومتي الحجاز ومصر من الصلات المتينة والصداقة الوثيقة العرى لا يمكن أن يؤثر فيها شيء من ذلك».

## الدين أغلى من الأنفس والأموال والأولاد ومع ذلك تركته الأمة والحكومة والبرلمان يفتك به الإلحاد

الإنسان – بحسب فطرته – مجبول على حب نفسه حباً لا يداينه حب، وكل ما عداها من أنواع المحاب فمحبوب من أجلها، وليس كل محبوب في درجة واحدة عند النفس، بل تتفاوت درجات المحاب بتفاوت لذتها عند النفس ومنفعتها لها، فكلما كانت اللذة والمنفعة أصفى وأبعد عن المنغصات وأطول كانت محبتها أشد وأكاد، وقد تصل النفس في محبتها للشيء إلى درجة أنها تكره حياتها إذا فقدته.

تقرر هذه الحقيقة التي لا يختلف فيها اثنان لنقارن بين منفعة الدين ولذته وطولها وصفائها، وبين لذات الحياة الدنيا التي تبعد عن الدين. فنقول: إن كل لذة دنيوية – دون أي استثناء – لا بد لها من مؤلم منغص سابق لها أو مقارن أو لاحق أو جامع للثلاثة أو لاثنين منها: ولنضرب مثلاً بلذة النكاح التي هلك الناس وراءها وضاع في سبيلها دينهم ودنياهم، فنجدها مسبوقة بمؤلم هو ذلك الهيجان الحيواني ثم هي مصحوبة بما يعرف القارئ من المتاعب وأما الألم الذي يعقب اللذة المقصودة لا يحكى ولا يقال. ولو صفت لذة على سبيل الفرض لغير الواقع لما خلت عن خوف زوالها، دعك من يقين كل امرئ من أنه ميت ولا بد، وتارك كل هذه الدار بما فيها من اللذات، وهل تصفو لذة لعاقل وسيف هذه الموت مصلت مصوب إلى عنقه في كل آن؟

هذه لذات الدنيا وهذه قيمتها ولا بد أن يكون حبها عند النفس العاقلة الرشيدة في درجتها وعلى قدرها.

وأما لذة الدين وفائدته ومنفعته للنفس فهي دنيوية وبرزخية وأخروية أبدية، ولو ذاق اللادينون لذة حلاوة الإيمان بالله ومعرفته عز وجل، ولو شعروا بما يشعر به المؤمنون في القيام بخدمة ربهم وأداء ما يجب لجلاله وعظمته، لو شعروا بما في ذلك من حلاوة لقاتلوا العارفين العابدين عليها بالسيوف (وجعلت قرة عيني في الصلاة). ولو درى أهل الدنيا العاشقون لها الخائفون من جورها وجوعها وعطشها وضميمها ما أودعه الله في العمل بالدين من تيسير الأرزاق وسهولتها ولزومها للمتدين لزوم ظل له ما اتخذوا لاكتساب أرزاقهم وسيلة إلا التعلق بأذيال الدين، والاستغلال بظله الذي لا يزول، والاعتزاز بعزه الذي لا يطرا عليه ذل «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب» «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» «ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم

ومن تحت أرجلهم»، (وإن الرجل ليجرم الرزق بالذنب يصيبه)، «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين». وأما فائدة الدين البرزخية للمؤمنين فهي نعيم في روضة من رياض الجنة حتى يُبعثوا. وأما فائدته الأخروية الأبدية فكرامة يقول الله تعالى فيها في الحديث القدسي: «غسستُ كرامتهم بيدي، فلم ترَ عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر». قد تسمع الأذن ما لم تره العين، فالمسموع أوسع جداً من المرئي، والخاطر على القلب أوسع من المسموع فإن الخواطر لا حد لها. من أجل ذلك كان الحديث القدسي على ترتيبه الوارد يباليغ نهاية المبالغة مترقياً في ذكر ما أعد للعباد والشيء إذا علا قدره غلا عند صاحبه، واشتد حرصه عليه، وكان فزعه على تصور فراقه عذاباً. من أجل ذلك أمن الله تعالى أهل الجنة من زوال ما هم فيه بقوله: «وما هم منها بخارجين» «خالدين فيها أبداً» وما إلى ذلك من أنواع المطمئنات لتكون جنة حقاً «لا يصيبهم فيها نصب» ورضوان الله أكبر.

الدين الذي قدره ما ذكرنا، وفائدته ما وصفنا، عرف قيمته العفلاء من الناس – كسلفنا الصالح – فأيقنوا أن ليس بعد فائدته فائدة، ولا أصفى ولا أطول ولا أبعد عن المنغصات من لذاته، فأحبوه حباً يناسب قدره، حباً هانت لديهم معه أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل محبوب لهم في سبيلهن وهم والله معذورون في ذلك، والعقل السليم يقضي بما يقتضيه حبه. ليقبل لي القارئ الكريم وينصف: هل للنفوس والأموال والأولاد – وهي زائلة ولا بد – قيمة بدون الدين إذا كان مصيرها العذاب الأبدي في نار جهنم بعدما لا قت في الدنيا من أنواع آلامها كما وصفنا؟ العقل – كالدين – يقول لا قيمة لها أصلاً، بل قيمة نفوس الأنعام أجل وأشرف، وعاقبتها أحمد وأبعد عن كل ما يؤلم. إذن، معذور كل العذر من يحب الدين حباً أشد من حبه لنفسه وماله وأولاده والناس أجمعين. وإذا بذل روحه وكل عزيز لديه في سبيل الدين فقد برهن على العقل الكامل والنظر السديد والحكمة التامة التي تزن كل شيء بميزان وتقدر كل شيء قدره وتقدم ما يستحق التقديم وتؤخر ما يجب أن يؤخر. ولعل القارئ رأي شيئاً من أخبار المؤمنين المجاهدين في سبيل الله، ورأى مبلغ هوان أنفسهم عند الله في سبيل نصر هذا الدين، فلقد كان أحدهم يخرج من بيته ونهاية أماله أن يموت في سبيل الله، فإذا التحم الفريقان، أعداء الدين وأوليائه، يتقدم وليه بيده سيفه وهو يقول: «اللهم استشهدني وانصر دينك». فإذا أصيب إصابة مميتة لا تلبث أن تسمعه يقول: «فزت ورب الكعبة!» فإذا قدر لأحدهم أن يموت على فراشه كانت الكارثة عليه ونزل به من الغم ما لا تحمله الجبال على أن حُرِم من شرف الشهادة في سبيل دينه.

أولئك قوم دخل الإيمان شغافاً قلوبهم، ونفذت بصائرهم إلى ما وراء هذا العالم، فأشرفوا على حياة هي الحياة، وعلى لذات هي اللذات، فلم يحفلوا بدار كلها آلام ونهايتها الموت، فاختاروا لأنفسهم موتة يكون لهم بعدها ما

يكون من شرف ولذة وخلود، فأعزهم الله تعالى في الدنيا قبل الآخرة، وأعز بهم دينه، وجعلهم سادة العالم، كما يحكي لنا التاريخ وهو ثقة صدوق.

وليس بعجيب أن يحيا من قدّم نفسه للموت فإن ذلك هو سنة هذه الحياة، وإنما يسرع الموت لمن يفر من الموت. ذلك ما قامت عليه البراهين العلمية منذ بدء هذه الحياة، ومن طلب العز ومن وراء الدل فقد طلب مُحالاً، إنما العز ينتجه عزٌّ مثله. فليعرف ذلك القارئ الكريم وليرعه حق رعايته.

نذكر هذا للقارئ ليفهم منه مقدار الدين ومنزلته عند أهله الذين هم أهله، وليعلم منه ماذا كانت حالتهم مع الدين، ونرجوا مع هذا أن يلتفت القارئ للدين اليوم ولأهله معه.

أهل الدين اليوم حكام وعلماء وعامة الذين هم السواء الأعظم، وأعداؤه أشد الأعداء لأنهم أهله.

ولعل القارئ يقول كيف يكونون أهلاً للدين وكيف يكونون أعداءه؟ إن هذا تناقض في القول، وإني أقول إنهم أهله كما يدعون، وهم أعداؤه بحسب الحق والواقع، هؤلاء الأعداء الذين هم من أهله كما يقولون يسمون أنفسهم المجددين والمتنورين والمتمدين وأهل العرفان والنور وأنصار العلم وطلاب المثل الأعلى وما إلى هذه الألقاب الجليلة العظيمة. وهل تدري أيها القارئ ما هو التجديد والتنوير والتمدد والعلم والمثل الأعلى والنور والعرفان في مذهب أولئك القوم؟ هو نبذ الإسلام وراء الظهر، والنظر إليه بعين البغضاء والحقد والهجوم على تعاليمه وإرشاداته بكل ما أوتي أحدهم من قوة، والعمل بجد ونشاط على محوه من الوجود، ومحو كل من يدين به ويسمون من يدين به المنحط المتأخر الجامد الجاف القديم (الأنتيكة) أحد بقية القرون الوسطى، القرون المظلمة كما يسمونها، وإلى ذلك من دوال النقص الفظيع. فإذا كنت عندهم لا تحل حلالاً ولا تحرم حراماً، وكنت إباحياص صرفاً لا يعوقك عن عمل شيء قيد من القيود، فأنت الكامل الوحيد، وإلا فبقدر قيودك يكون نقصك. وسبب عظمى عندهم وعار عظيم أن ينطق الإنسان بلفظ الدين أو حكم من أحكامه، أو يعظم من كتابه أو سنة رسوله، أو يذكر بالتبجيل من جاء به عليه الصلاة والسلام، أو يشير إشارة بسيطة إلى فضل من نصره وحافظوا عليه ووقفوا أمام أعدائه ووقف الأسد يدفع عن أشباله.

ولقد أعلن الدين بالحرب هؤلاء المجددون المتمدينون طلاب المثل الأعلى! وهاجموه مهاجمة قاسية من زمن بعيد، وهذه رحى تلك الحرب تدور ويأبى معلنها أن تضع أوزارها حتى لا يبقى في الوجود شيء من الإسلام ولا واحد من أهله؛ ولكنهم غير بالغي ذلك.

ولا يظن القارئ أن تلك الحرب تجري في خفاء! لا، لا! إنها تجري على رءوس الأشهاد، بمرأى ومسمع من الحكومة والعلماء والأمة وبرلمانها ويحمل لواء تلك الحرب وينظمها ويقدم عددها وعددها ويهيج عليها جرائد بيننا ومجلات نقرأها جميعاً ونتهافت على شرائها.

ولعل القارئ يقول: وأين حكومة البلاد، كيف لا تدافع عن دينها وهو الدين الرسمي للبلاد؟ وعادة الحكومات إذا اتخذت شيئاً شعاراً لها أن تموت في سبيل الدفاع عنه والمحافظة عليه. مثال ذلك علم البلاد، فإن أي دولة لو تعرضت لعلم دولة أخرى بأي إهانة كان ذلك النذير العريان للحرب بلا نزاع، إلا أن تعتذر الدولة التي أشارت بالإهانة، وتجيء من أنواع الترضيات بما يكفي وفوق الكفاية. وإذا كان من أجل العلم وهو عبارة عن قطعة خرقه متصلة بقطعة من الخشب لا قيمة له في ذاته وإنما الذي جعل له تلك القيمة كلها أن الحكومة جعلته شعارها فكيف لا يكون ذلك وأضعاف أضعافه من أجل الدين الإلهي المحترم لذاته بما يشتمل عليه من الحكم والأحكام، ولمن شرعه وهو رب العالمين ملك النواصي والقلوب، ولمن جاء به وبلغه وهو أفضل العالمين، زد على ذلك أن الدولة اتخذته دينها الرسمي.

إن قال قائل ذلك فإني لا يسعني إلا أن أقول له أن الحكومة – بكل أسف – كل ذلك حاصل أمامها دون أن تحرك أي ساكن، وهي التي تقوم وتقع من أجل أي حادث بسيط وأنا في حلٍّ من أن أقول أن علم الدولة أجلّ عندها من الدين بملايين المرات، ولا يمكنني أن أفهم أن العلم يُهان أي إهانة من أي أحد وتسكت الحكومة على ذلك سكوتها على الدين.

إن هذا قائل بأعلى صوته إن الحكومة لا يههما ذهب أم بقي الدين. لتعلم الحكومة أن ذلك ربما كان سبباً في فتنة إطفاء نارها صعب وبعيد، فإن للدين رجالاً هم الأمة بأسرها – إذا استثنينا أولئك الملحدين – قد يغارون عليه ويغضبون له، وسهل عندهم أن يفهموا من يناوئه أي شيء يناوئ، وأي أمة يقف أمامها. ولكن هؤلاء الرجال ينتظرون ما تفعل الحكومة. فهل تفعل الحكومة ما يقضي على تلك الفتنة قبل أن تكون، ليبقى الإخاء والوئام، ونجت جذور الشقاق من أصولها؟ الحق إن كثيراً أن ترى الحكومة بعينها من يهدم في الدين بأقوى المعاول وهي صامتة ساكتة. نعم ذلك شيء لا نرضاه للحكومة، ويجب ألا نرضاه لنفسها. إذن فلترنا ما تفعل، وللنفوس بها ثقة أي ثقة، ولحسن الظن تعلق بها أي تعلق.

وإذا أمكن متمحلاً أن يتمحل للحكومة عذراً في غفلتها عن الدين، فما هو قائل في غفلة البرلمان: نوابه وشيوخه؟ وبماذا يفسر سكوتهم عن هذا الخطب الذي ليس بعده خطب؟ نحن نقرأ في الجرائد كل يوم للبرلمان تشريعات لكل صغير من الأمور وكبير، فهل يعظم عليه أن يشرع تشريعاً يقضي باحترام عقائد جمهور الأمة من سيف البحر إلى أقصى الصعيد، ويقطع ألسنة الملحدين عن الهجوم على الإسلام؟ إن ذلك التشريع بلا شك أيسر عند البرلمان من مس الإنسان أذنه، والدليل على ذلك ما نلى كل يوم. فإذا تمادى البرلمان على هذا السكوت أفهمنا أن هناك اتفاقاً بينه وبين الحكومة على إهمال الدين، أو قل على قتل الدين

## خريجو دار العلوم والمحاماة الشرعية

أرسل إلينا الأستاذ الفاضل الشيخ محمد مختار يونس صورة مذكرة رفعها إلى ولاية الأمور بشأن القانون رقم ١٥ لسن ١٩١٦ القاضي بإغلاق باب المحاماة الشرعية في وجه خريجي دار العلوم جاء فيها أن هذا القانون صدر أثناء عطلة الجمعية التشريعية وبلا ضرورة ملجئة. وخريجو دار العلوم درسوا الشريعة الغراء في الأزهر المعمور، ثم أجادوا نقاشها في دار العلوم، وهم أولى بالمحاماة أمام المحاكم الشرعية الإسلامية من كثيرين ممن أباح القانون لهم ذلك كغير المسلمين من خريجي مدرسة الحقوق الذين لا يُفاس علمهم في الشرع إلى علم المتخرجين في دار العلوم. ويقول إن القانون رقم ١٥ لسنة ١٩١٦ من آثار مستر دنلوب، فيجدر بولاية الأمور ونواب الأمة أن يُعيدوا النظر فيه لتردّ الحقوق إلى أهلها.

فحسبى أن يكون لمذكرته التأثير الذي تستحقه لدى ولاية الأمور ونواب الأمة.

## حول استجواب معالي وزير المعارف في مسألة طه حسين

ما أهنأ ذلك الوقت وأسعد تلك الساعة التي قرأنا فيها للشيخ مصطفى القاياتي استجوابه لمعالي وزير المعارف عن مسألة طه حسين وكتابه الذي يكذب فيه القرآن ويحط من قدر نبينا صلى الله عليه وسلم، ويبث ذلك في عقول طلبة الجامعة الأميرية التي ينفق عليها المسلمون من أوقافهم، وتتولى إعداد رجال المستقبل الذين سيكونون يوماً ما قادة للأمة.

هنتنا بذلك الاستجواب حقاً، وطرنا به فرحاً، لأنه أبان لنا عن رجال في السويداء يغارون على الأمة أن يندك صرح عزها ومجدها بأيدي المأفونين وصنائع أوربا من خوارج أبنائها الذين لا يفتأون يبدرون بذور الإلحاد والإفساد، ويعملون ليلهم ونهارهم جادين في نشر ذلك وتأصيله في النفوس ليتهايم لهم الجو الصالح لشهواتهم الشيطانية ونفسياتهم التي تآبى عليهم إلا أن يكونوا والناس معهم طغاة متمردين على كل سلطة خارجين حتى على الله الذي سخر لهم ما في السموات والأرض، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة.

حمدنا للشيخ القاياتي ولمجلس النواب ذلك الموقف المشرف حقاً والذي يجعل الأمة مطمئنة على دينها الذي هو أعز شيء لديها، والذي تقديه بأخر قطرة من دمها.

حمدنا لهم ذلك وقلنا: الآن يعرف المارقون مكانهم من الأمة عندما يعلن النواب رأيهم، ويجهروا بقولهم: إن ديننا الرسمي الإسلام، وإن أصل ذلك الإسلام هو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم

ومحوه. وإنا نعيذ من ذلك برلماناص على رأسه مثل زعيمنا الأكبر سعد باشا زغلول، ونرجوا بل نتأكد أن ذلك التشريع كائن لا محالة، والذين منصور ولا بد، والملحدين مقضى عليهم بترك هذا العدوان القضاء الأخير. ذلك ما تنتظره الأمة منه حفظه الله، فهل هو فاعل؟ اللهم وفقه يا رب العالمين.

بقي القول في حضرات العلماء وهو أنصار الدين وهداة الخلق وملاذ الأمة إذا خيف على الدين أي ضيم: ماذا جرى لهم، وأي شيء أسكتهم، وأين صولتهم الدينية، ووقفاتهم المعروفة بجانب الدين؟ إن كثيراً من الناس يوجه لهم سهام الملام، وعلى رأسهم يوقع كل خذلان حصل للدين، ويقول: لو قاموا لانتصر الدين، ولما اجترأ عليه أحد من أولئك الزعانف الخارجين، وللمتكلم بذلك بعض العذر، غير أنه لم ينظر لمسألة العلماء من كل وجوها، ولعله إذا نظر لها ذلك النظر عذرهم بعض العذر وخفف من لومه عليهم.

هجم ملحد من أولئك الملحدين على الدين هجوماً في غاية الشناعة، فقام وفد من العلماء وقابل بعض ولاية الأمور لي-[و]قفوا هجوم ذلك المهاجم، فرأيت جرائدنا تقول عنهم ما تقول من تعنيف وتسفيه. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يعر ولاية الأمور شكواهم أنناً صاغية، بل تركوهم كأنهم يهذون ولم يروا من الأمة مؤيداً وليس بيدهم من الأمر شيء. فيلقل لي اللائم بإنصاف: ماذا يفعل العلماء أكثر من هذا؟ إن تكليفهم بشيء فوق هذا معناه تكليفهم أن يحاربوا الحكومة، ويجبروها أن تقوم بكف الأذى عن عقائد الأمة، وهذا لا يكلفهم به أحد من العقلاء.

لنترك العلماء والكلام عنهم وثلثت إلى الأمة وهي مصدر السلطات كلها، كما يقرر دستورها، قائلين لها: أين أنت وما عذرك في سكوتك هذا، ودينك يهان تلك الإهانات الفظيعة ويُتعدى عليه ذلك الاعتداء الأليم؟ والغريب أن هذا السكوت طال مع توالي الاعتداءات وتكررها من صغير إلى كبير إلى أكبر وهكذا! أنبئني بصدق وإخلاص، أيستطيع واحد من أفرادك أن يقف ساكناً دقيقة واحدة وهو يرى من يسطو على ماله؟ الجواب: «لا» من غير شك. وإذا كان ذلك من أجل المال فكيف ساخ لك أن تقفي ذلك الزمن الطويل ودينك يُسَطى عليه ذلك السطو الجريء؟ أتريدون أن تقولوا لنا إن المال عندك أعز وأجل من الدين؟ إذا كان ذلك فإننا لله وإنا إليه راجعون. فالمصيبة إذن تكون قد بلغت منتهاها، وحينئذ فلا يناسب غير السكوت!

(مؤمن)

حميد، وإن من يطعن في القرآن ويكذبه فهو طاعن في دين الأمة، وطاعن في أشخاص الأمة، بل وطاعن الأمة في الصميم من قلبها، وإن من يفعل ذلك فهو خارج على الأمة محارب لها، فلا أقل من أن يحال بين ذلك الخارج على الأمة وبين أبنائها أن يفسد دينهم ويجعلهم مع خارجين على آباؤهم وأهلهم، محاربين لوطنهم ولمصاحبه ومرافقه وعاداته ومقوماته، بل يكونون عوناً للمستعمر وساعداً قوياً له في بسط نفوذه. وماذا ترجو أمة مستعرة من أمة ضعيفة أكثر من أن تتلاشى تلك الأمة الضعيفة فيها أخلاقاً وعادة وديناً، فتصبح أطوع لها من ظلها، لأنها تراها صاحبة الفضل عليها. بل ترى أن حياتها مرتبطة بحياتها ولا تستطيع أن تعيش في هذا الوجود إلا بها. ولعل هذه الحالة النفسية في طه حسين مما حمله على معارضة الأمة في تركتها المباركة زمناً طويلاً.

برز الأستاذ القاياتي في ميدان الدفاع الحق عن الأمة بالدفاع عن دينها، واعتقدنا أن الأستاذ قد أخذ لذلك الجهاد عدته من الغيرة الصادقة على الدين، والحجج القاطعة، يدعم للبرلمان بها وجهة نظره حتى يخرج من الميدان ظافراً وعند ذلك لا يكون ذلك نصراً للأستاذ وحده، كلا والله، فإن من ورائه أمة بأسرها. بل من ورائه الإسلام يناهضه الإلحاد ويناضله يريد أن يقضي عليه ليتبوأ مكانه من القلوب والأخلاق. لقد كان ظفر الأستاذ ظفراً مجيداً يسجله التاريخ في أنصع صفحة وأبين مكان من كتابه.

ولكن أه وآه تفتت القلوب وتذوب النفوس حسرة وأسى وأسفاً على ذلك التراجع، بل ذلك التقهقر، بل تلك الطعنة التي أصيب بها الإسلام بيد أحد قاداته الذين كان ينتظر منهم الرحمة به والإحسان إليه، وقد كان سبباً في عزهم وعلو شأنهم.

أه يا أستاذ، لقد والله سننتَ بذلك سنة لم تكن نرضاهما في التراجع عن نصرته الدين في وقت هو أشد احتياجاً منه إلى النصر في أي وقت آخر، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

ماذا نقول يا أستاذ؟ والله لقد تحيرت العقول وتبلبلت الأفكار. وأقسم لك بالله لقد بات عدد لا يحصيهم إلا الله هذه الليلة يقض مضجعهم ذلك الحادث المؤلم وذهب بنومهم خطرُ ذلك الفادح وباتوا ليلاً طويلاً يرفعون شكاتهم إلى الله وحده. ولقد والله سخنت عيون كثيرة من طول ما ذرفت من دموع غزار على موت ذلك الأمل الذي كانوا يرجونه من وراء جهادك وتهمُّ ذلك الصرح الذي كانوا يودون أن يكون لك الشرف بإقامته. لا ندري ولسنا نقدر أن نعلل السبب في تراجعك يا أستاذ وعهدنا بك أن مقدم. وما يا ترى خشيت من استمرارك في الميدان، وأي شبح هذا الذي ظهر لك حتى رجعت بعد أن كنت تمشي إلى الأمام بخطوات ثابتة؟ هل تغير رأيك الأول وظهر لك أن الكتاب موضوع الاستجواب حق وصواب؟ أن كان ذلك ولا نظنه ولا نصدقه لو أقسموا لنا بكل الأيمان! كانت هذه أدهى وأمر. أم هل علمت أن طه حسين قد أحرق كتابه ورجع عن

تكذيبه للقرآن، وعاد إلى حظيرة الإسلام، وأخذ عهداً على نفسه وأخذ عليه أن لا يعود لفعلته التي كان فعل، وأمنت بذلك على طلبة الجامعة أن تفسد عقائدهم، وأنه ظهر لهم أن أستاذهم كان ضالاً ثم تاب وأناب وكفر عن ذنبه بحرق كتابه؟ وإن كان ذلك ولا نظنه ولا نصدقه أيضاً، لأنه لا يزال يطعن في الدين، ويريد أن يهدم الأزهر على رأس الذين جمعوا فيه بين خطر الجهل وخطر الجمود! ولا نظن أيضاً أن نصدق مثل هذا. أم أن هناك أمور خفيت على الناس حملتك على سحبك لاستجوابك فأطعتها مرغماً؟ وذلك أيضاً لا نظنه لأننا نعلم أنك من علماء الدين، ومن عائلة معروف بالدين، بل معرفة بأنها تقود الناس إلى الدين ونعلم أن قبولك لهذا معناه أنك راعيت جانب الخلق ولم تراع جانب الله تعالى، وأنت خشيت ضياع عرض من الدنيا زائل، ومتاع قليل قدمته وحرصت عليه أكثر من حرصك على ما عند الله الذي هو خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. كل تلك الوجوه لا نرى منها وجهاً يصح أن نحمل عليه استردادك لاستجوابك، فلتبين لنا يا أستاذ موقفك بالدقة ليعذرک الناس ويعلموا أنك لم تخذل دينهم في أشد الأوقات وأعصبتها.

وأخيراً ألفت لفتة قصيرة إلى رجال الدين فأقول لهم بأدب تام واحترام عظيم جداً – وأنا واحد من أبنائهم – يا رجال الدين وحماته وقادته، إنه لا تقوم للإسلام قائمة ولا يرفع للمسلمين شأن ولا يصلح لهم حال ولن يفلحوا ما دام شأننا هذا التواكل والتخاذل عن دين الله الذي هو رأس مالنا وسبب رفعتنا وعماد شرفنا.

ويا رجال الدين، إن أمامكم أرضاً خصبة طيبة فاعملوا لزرعها واغتنموا الفرصة قبل أن يأخذها عدو الدين فيزرعها بالحاده ومحاربتة لكم ولدينكم.

يا رجال الدين، يكفي نوماً ويكفي كسلاً ويكفي انشغالاً بالدنيا، فانفضوا عن أكتافكم غبار ذلك النوم، وانشطوا للعمل، فإنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. اعملوا ولا تياسوا من روح الله، إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون.

هداني الله وإياكم سواء السبيل، وجعلنا وإياكم من جنده المدافعين عن دينه.

محمد حامد – إمام مسجد شرکس